مقالات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

# جوانب من العلاقات الثقافية بين المغرب السعدي والسودان الغربي

**هشام بلمسرحة**
باحث دكتوراه تخصص العلاقات المغربية الإفريقية
جامعة ابن طفيل القنيطرة
سيدي قاسم – المملكة المغربية

## مُلَخّص

*يهدف هذا المقال إلى إلقاء الضوء على جوانب مهمة من العلاقات الثقافية بين المغرب السعدي والسودان الغربي إذ يكشف على أنه قد ربطت الأشراف السعديين بالسودان الغربي علاقات تجارية واقتصادية وثيقة وخاصة أن السعديين كانوا يعتبرون أن بلاد السودان امتدادًا لنفوذهم السياسي فكانت أول خطوات الاتصال هي الحركة التجارية، والتي أنتجت معها علاقات ثقافية بين القطرين ساعد على تقويتها الدين الإسلامي الحنيف و سيادة المذهب الواحد ألا وهو المذهب المالكي، وقد حرص السعديون على تمتين العلاقات الثقافية بينهم وبين بلاد السودان، حيث زاد التواصل بين القطرين عن طريق الرحالات العلمية فانعكس ذلك على تبادل المعارف والعلوم والمصنفات العلمية، وانتقال طلبة العلم بين المغرب السعدي والسودان الغربي، هذا بالإضافة إلى هجرة المغاربة إلى السودان الغربي الذين كان من بينهم العلماء والفقهاء الذين ساهموا في إثراء الحياة الفكرية، والذين لم يكونوا يلقوا أية صعوبات عند حلولهم بالبلد الآخر نتيجة وحدة المذهب، وكانوا يعينون في الوظائف الهامة مثل التدريس، الخطابة، الكتابة، القضاء، كما كان للعلماء دورًا كبيرًا في مختلف المجالات، وخاصة المجال العلمي، ولا سيما علماء المغرب الذين ظهر تأثيرهم بشكل جلي وواضح في السودان الغربي وبخاصة في مجال التعليم إذ نقلوا طريقتهم الخاصة في ذلك وساهموا بقسط كبير في حركة التعريب بالجزء الغربي من القارة السمراء، وذلك راجع بالدرجة الأولى إلى اشتغال أغلبهم بعد حلولهم بالسودان الغربي في ميدان التربية والتعليم، حتى أصبحت الثقافة ببلاد السودان ثقافة مغربية على أرض سودانية.*

## بيانات المقال:

تاريخ استلام البحث: ٢٠ يوليو ٢٠٢٠
تاريخ قبـول النشـر: ١٨ أغسطس ٢٠٢٠

## كلمات مفتاحية:

السودان الغربي؛ المغرب السعدي؛ الرحلات العلمية؛ الفقهاء المغاربة؛ الفتاوى الدينية

**معرِّف الوثيقة الرقمي:** DOI 10.21608/KAN.2020.185217

## الاستشهاد المرجعي بالمقال:

هشام بلمسرحة. "جوانب من العلاقات الثقافية بين المغرب السعدي والسودان الغربي".- دورية كان التاريخية.- السنة الثالثة عشرة- العدد التاسع والأربعون؛ سبتمبر ٢٠٢٠. ص ١٤٦ – ١٥٣.

Official website: http://www.kanhistorique.org
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

**Corresponding author**: hicham.belmsrha.mr@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Inquiries: info@kanhistorique.org

**Open Access** This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

نُشرت هذه الدراسة في دَّورِيةُ كَان التَّارِيخية للأغراض العلمية والبحثية فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

## مُقدِّمَةُ

لقد احتل المغرب عبر فترات تاريخية طويلة، مكانة مهمة في مجال العلاقات الدولية، وأوضح دوما هويته كأرض للتلاقي والتواصل والتجانس، وكمجال لتقاطع وتلاقح تيارات حضارية، وأفكار ورؤى متعددة ومتنوعة، أمازيغية، عربية، أندلسية، وإفريقية، إذ ربطته ببلاد السودان علاقات متينة، ووشائج عميقة كان لها الفضل في حدوث تراكم وتفاعل حضاري بين الطرفين، وقد انتظمت وتوطدت تلك الصلات بين الجانبين عبر قنوات متعددة، كالتجارة، والدبلوماسية، والسياسة، والاقتصاد، والحرب، والبحث عن المعرفة، ولم تكن الصحراء أبدًا لتشكل حاجزًا طبيعيًا بين المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء[1]، منذ العهود الأولى التي سبقت انتشار الإسلام، فكانت أول خطوات الاتصال هي الحركة التجارية، وما أنتجته من علاقات اقتصادية، نقلت معها المؤثرات الحضارية والثقافية، من الشمال إلى الجنوب عن طريق المسالك التجارية. لكن البعد الثقافي والعلمي كان حاضرًا بقوة في هذه العلاقات من خلال الأدوار المختلفة التي اضطلعت بها البلدين لتشجيع الرحالات العلمية لقد كانت للمغرب وإفريقيا جنوب الصحراء، صلات ثقافية وإنسانية وثيقة، حيث لم تقف الصحراء عائقًا بين اتصال شمال إفريقيا بالسودان الغربي، إذ ساهمت العوامل التاريخية والجغرافية في تعميق المشترك الثقافي، بين المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء، عن طريف الرحلات العلمية، التي ساهمت في نقل الثقافات وتوسيع دائرة الخبرة، والتجربة الإنسانية، وتكمن أهمية الرحلات العلمية، في أنها لها دور كبير في تمتين العلاقات الثقافية بين الدول، ومدى مساهمتها أيضًا في تنشيط الحركة الثقافية والفكرية، وفي تشكيل معالم الوحدة الثقافية الإسلامية، بين المغرب والسودان الغربي، من خلال مختلف الكتب والمصنفات التي كان يتداولها علماء القطرين. فما مظاهر العلاقات الثقافية بين المغرب السعدي والسودان الغربي؟

## أولاً: الرحلة في طلب العلم

لقد كان لموقف الإسلام من العلم والحث على طلبه أثر في اهتمام المسلمين بالرحلات العلمية، فقد حث الإسلام على العلم والسعي في طلبه وتحصيله حتى روي عن الرسول (ﷺ) أنه قال: "من سلك طريقا يطلب فيه علما سهل الله به طريقا إلى الجنة"[2] وقال أيضًا "لأن تغدو فتتعلم بابا من العلم خير من أن تصلي مائة ركعة"[3] وقال عليه السلام أيضا "أطلبوا العلم ولو كان في الصين"[4] وانطلقا من هذا يتبين حرص العلماء والطلبة على اكتساب المعارف والتزود بالعلم، وتحمل ضروب المشقات وألوان التعب في سبيل ذلك ولم يدخر المسلمون في تاريخهم الطويل أية وسيلة من الوسائل التي تعينهم على بلوغ ذلك الهدف السامي، ومن هذه الوسائل كانت الرحلات العلمية والتي اعتبرها علماء المسلمين ضرورة يجب أن يسلكها طالب العلم في حياته العلمية، حتى أن العلامة ابن خلدون اعتبر الرحلة في طلب العلم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعلم[5].

## ثانيًا: الرحلات العلمية من أجل طلب العلم بين القطرين

### ١/٢- ظاهرة الرحلة من المغرب نحو السودان الغربي

من سمات التطور الحضاري، والتفوق العلمي وجود الرحلات، والأسفار للعلماء بين مراكز العلم في العالم الإسلامي، وذلك للتزود بالعلوم، واكتساب المعرفة، فقد تولد عن ذلك نشاط علمي كبير في الدولة الإسلامية، وتكمن أهمية الرحلة العلمية، في أنها لها دور كبير في تمتين العلاقات الثقافية بين الدول، ومدى مساهمتها أيضا في تنشيط الحركة الثقافية والفكرية، وفي تشكيل معالم الوحدة الثقافية الإسلامية بين المغرب والسودان الغربي، من خلال تبادل مختلف الكتب، والمصنفات التي كانوا يتداولنها علماء القطرين، والطلبة فكانت الحركة الفكرية متواصلة بين السعديين والسودان الغربي، من مختلف العلوم وللإجازة والتعمق أكثر خاصة في مجال الفقه وأصوله، والعلوم الأخرى، ومهما كانت دوافع الرحلة العلمية وأهدافها فإن المقصد العلمي كان أهمها وأشملها، حيث كان الطلاب يشدون رحالهم إلى مختلف الحواضر المغربية والسودانية، متحملين مشقة السفر حتى أصبحوا شيوخا وأساتذة، وعلماء ساهموا بقسط كبير في إثراء النهضة الفكرية والتعليمية، ولقد توطدت العلاقات الثقافية والفكرية بشكل أكبر بين الدول عن طريق الرحلات العلمية[6]، حيث نجد مجموعة من علماء المغرب، يتجهون نحو السودان فيستوطننه، ويمارسون فيه نشاطهم العلمي والإبداعي، سواء أقاموا فيه إلى حين وفاتهم، أو استوطنوه مدة ثم عادوا إلى المغرب، وقد كان علماء المغرب يتجهون إلى السودان الغربي، بهدف الإصلاح والتعليم، و نشر المبادئ الصحيحة للدين الإسلامي، فمن هؤلاء نكتفي بذكر:

#### ١/٢) ١-العالم محمد بن عبد الكريم المغيلي

ولد بمدينة توات[7]، في حي كان يسكنه اليهود، وانتقل إلى فاس٨ برسم الدراسة العليا، وكان سنيًا لا يقول بالاجتهاد، ولذلك كانت له مع علماء فاس مساجلات أخذت شكل خلاف،

واشتهرت تلك الخلافات تم اتسعت بعد ارتحاله إلى تونس، وفضل المغيلي أن يهاجر إلى السودان، حيث أصبح أكبر أستاذ في تكدة[٩]، وغاو[١٠] وكانو[١١]، واتصل في غاو بالأسكيا الحاج محمد، وتذاكر معه في جملة من المسائل الفقهية، وألف في السودان عشرات الكتب، والشروح وحشى بعض المؤلفات الأخرى، ذكر صاحب الديباج واحد وعشرين منها، وأهم تلك المؤلفات : مغنى اللبيب في شرح مختصر خليل، وإكليل مغنى اللبيب، والمنسيات، وأسئلة الأسكيا الحاج وأجوبة المغيلي عليها[١٢].

### (١/٢) ٢-العالم محمد بن يوسف بن مهدي الزياتي الغماري أبو عبد الله

الفقيه، النحوي، كان يستظهر نحو النصف من مختصر ابن الحاجب، وكان يقوم على ألفية ابن مالك أتم قيام، أخذ النحو عن أبي العباس القدومي، وعن أبي العباس المنجور[١٣]، غير النحو من العلوم، انتقل إلى السودان، وراح ينشر علمه هناك إلى أن أدركه الموت، بكانو من بلاد السودان بعد ٩٩٠هـ[١٤].

### (١/٢) ٣-العالم عبد الرحمن بن علي بن سفيان أبو زيد السفياني لسفياني العاصمي

الفقيه، المحدث الرواية الرحالة، أخذ عن القلقشندي، وزكريا، وابن مهدي، والسخاوي، كلهم عن ابن حجر، وأخذ عن جماعة، كأبي النعيم رضوان عبد الله، وأبي راشد يعقوب بن يحيى البذري، وأبي العباس أحمد بن علي المنجور[١٥]، كما أخذ عن شيخ الجماعة كإبن غازي، والشيخ زروق بفاس، وأخذ علم الحديث بمصر ثم ذهب لبلاد السودان، ودخل كانو وغيرها فعظموه ثم عاد إلى فاس سنة ١٥١٨م، حيث أصبح من علماء جامع الأندلس، يدرس الموطأ والكتب الستة المعتمدة في العلوم الدينية، (البخاري – مسلم – النسائي – الترمذي – ابن ماجة – أبا داوود) له عدة تأليف توفي عام ١٩٤٥م[١٦].

### (١/٢) ٤-العالم مخلوف بن علي بن صالح البلبالي[١٧]

درس في ولاته[١٨] مبادئ العلوم ورسالة أبي زيد في الفقه، ارتحل إلى المغرب وحضر بفاس دروس علي ابن الرازي، ثم عاد إلى السودان للتدريس بكانو وكاشينا، وحن إلى المغرب فشد الرحال إلى مراكش، ومات مسمومًا عام ١٥٣٣ بعد عودته الثالثة للسودان، وقد كتب مؤلفًا في النوازل[١٩].

### (١/٢) ٥-العالم محمد بن محمد بن أبي بكر العصنوني التواتي

الذي "درس في الصحراء والسودان، ومراكش"[٢٠].

### (١/٢) ٦-العالم سالم بن محمد بن أبي بكر العصنوني التواتي

الفقيه القاضي بتوات وبتمنطيط، أخذ عن عمه، أبي محمد عبد الله بن محمد بن أبي بكر علي، عن أبي زكري وجماعة من العقبانيين والتلمسانيين، وأخذ أيضا عن أبي زكريا يحيى السوسي، وغيرهم، وكان من عباد الله الصالحين، من أهل الحق في حكمه، حمدت سيرته، وصلحت سريرته، وأسلم على يده خلق كثير من أهل كانو وسلطانها من بلاد السودان[٢١].

### (١/٢) ٧-العالم محمد بن محمد بن أبي بكر التواتي أبو عبد الله

له سند ورواية وسماع، وله مشاركة في الحساب والفرائض، أخذ البخاري، عن أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بغيغ، أحد كبار علماء السودان، عن أبي عبد الله، أندغ، عن القلقشندي، عن ابن حجر. يقول ابن القاض، تدبجت معه، أجاز لي، وأجزت له، وأخذ عني الحساب والفرائض بمراكش المحروسة، ولد سنة ٩٤١ هـ.[٢٢]

### ٢/٢-ظاهرة الرحلة من السودان الغربي نحو المغرب

نجد في مقابل هذه الرحلات المغربية نحو السودان، مجموعة من العلماء السودانيين الذين كانوا يفدون على المغرب فيستوطنون ويواصلون فيه نشاطهم العلمي في مختلف المراكز الثقافية كمراكش وسوس وفاس وغيرها، نقتصر منهم على ذكر:

### (٢/٢) ١-العالم مخلوف بن علي بن صالح البلبلي

فقيه حافظ رحالة اشتغل بالعلم على كبر على ما قيل، فأول شيوخه سيدي العبد الصالح عبد الله بن عمر بن محمد أقيت، شقيق جدي بولاتن، قرأ عليه الرسالة ورأى منه نجابة، فحظه على العلم، فرغب فيه وسافر للمغرب، فأخذ عن ابن غازي وغيره، واشتهر بقوة الحفاظة، حتى ذكر عنه العجب في ذلك، ودخل بلاد السودان، ككانو وكشنة[٢٣]، وغيرهما، وأقرأ هناك وجرى له أبحاثا في النوازل مع الفقيه العاقب الأنصمني، ثم دخل تنبكت وأقرأ بها، ثم رجع للمغرب فدرس بمراكش، وسم هناك، فمرض فرجع لبلده، وتوفي بعد الأربعين وتسعمائة[٢٤].

### (٢/٢) ٢-العالم عبد الرحمن التميمي

جاء من أرض الحجاز صحبة السلطان منسا موسى، صاحب مالي، حين رجع من الحج فسكن تنبكت، وأدركه حافلاً بالفقهاء السودانيين، ولما رأى أنهم فاقوا عليه في الفقه، رحل إلى فاس وتفقه هناك، ثم رجع إليه فتوطن فيه، وهو جد القاضي حبيب رحمهم الله تعالى[٢٥].

**(٢/٢) ٣-العالم أحمد بابا التنبكتي**

هو العلامة أحمد بابا، بن الفقيه أحمد بن الحاج أحمد ابن عمر ابن محمد أقيت، (ولد سنة ٩٣٩هـ)، سلطان العلماء بالسودان الغربي، وعالمه بلا منازع، فقد داع صيته في الشرق والغرب، وأصبح يشار إليه بالبنان، نفي إلى مراكش، فاستقر بها، فتقاطر عليه الطلاب في كل مكان، يأخذون منه العلم، وقد أشار إلى هذا بقوله "ولما خرجنا من المحنة، طلبوا مني الإقراء، فجلست بجامع الشرفاء بمراكش من أنواه جوامعها، أقرئ مختصر خليل قراءة بحث وتحقيق ونقل وتوجيه، وكذا تسهيل ابن مالك وألفية الحديث للعراقي، وتحفة الحكام لابن عاصم، وجمع الجوامع للسبكي، وحكم ابن عطاء الله، والجامع الصغير للسيوطي، والصحيحين، وغيرهما، وازدحم علي الخلق، وأعيان طلبتها، ولازموني بل قرأ علي قضاتها، كقاضي الجماعة بفاس، وكذا قاضي مكناسة، ومفتي مراكش وغيرهم، وأفتيت فيها لفظا، وكتبًا بحيث لا توجه إلا إلي[٢٦]، حيث ذاع صيته، واشتهر أمره، وانتشر ذكره، وسلم له علماء الأمصار في الفتوى[٢٧].

**(٢/٢) ٤-العالم الشاعر عبد الحكيم الجواري**

أخذ عن الفقيه سعيد المغربي بتلمسان، وعن غيره، وهو قاضي تكورارين[٢٨]. وله نظم، يقول ابن القاضي، اجتمعت به بمراكش سنة ٩٩٨هـ[٢٩].

**(٢/٢) ٥-العالم أبو فحص عمر بن الحاج أحمد بن عمر أقيت**

"النحوي المادح لرسول الله (ﷺ)، صباحًا ومساءً، المسرد لكتاب الشفا، في كل يوم رمضان في مسجد سنكري، الواصل لرحمه، المتعاهد لأقاربه، يتفقدهم في صحتهم، ويعودهم في مرضهم، المنشرح وجهه، للخاصة والعامة، المتوفي شهيدا في مدينة مراكش، رحمه الله تعالى ورضي عنه"[٣٠].

**(٢/٢) ٦-العالم القاضي العاقب**

الذي استوطن مراكش، بدليل أن ابنه سيف السنة، وابنته عائشة ماتا بها، كما أثبت ذلك عبد الرحمن السعدي في تاريخه[٣١].

**(٢/٢) ٧-العالم أحمد بن أند غمحمد السوداني:** الذي دخل إلى المغرب، للاتصال بأعلام العصر، ودرس مدة بإيليغ، بالأطلس الصغير"[٣٢].

## ثالثًا: اعتماد المصنفات المغربية في الدرس السوداني

يرجع إلى الفقهاء المغاربة، الذين استوطنوا السودان الغربي، لسنوات طويلة الفضل في تعريف أهل البلاد، بالمصنفات المغربية، التي نقلوها ودرسوها لهم، والتي انتشرت على نطاق واسع، في معظم بلدان السودان الغربي، ومما يدل على كثرة المؤلفات التي تركها هؤلاء العلماء، وباتت معروفة، ومقروءة من قبل العامة والخاصة، ومتداولة بين أيدي طلاب العلم، ومن النادر، أن نجد بين هذه المؤلفات، كتابًا واحدًا لعالم غير مغرب الأصل، بل إن المناهج، والمؤلفات المغربية، كانت هي التي تدرس في السودان الغربي[٣٣]، حيث كانت الصبغة المذهبية، لهذه الكتب مالكية في معظمها، وذلك لسيادة المذهب المالكي، في شمال إفريقيا وغربيها[٣٤]، ولهذا وصفت الثقافة في السودان الغربي بأنها ثقافة مغربية على أرض سودانية[٣٥].

وندع مؤرخ تنبكت، عبد الرحمن السعدي، يتحدث بنفسه عما درسه من مواد على يد أستاذه، وشيخه، أحمد بابا التنبكتي، ملازما له لمدة عشر سنوات، يقول "ختمت عليه مختصر خليل، بقراءته، وقراءة غيره، نحو ثماني مرات، وختمت عليه الموطأ، قراءة فهم وتسهيل، ابن مالك قراءة بحث وتحقيق، مرة بثلاث سنين، وأصول السبكي بشرح المحلي، ثلاث مرات، قراءة تحقيق، وألفية العراقي، بشرح مؤلفها، وتلخيص المفتاح بمختصر السعد، مرتين فأزيد، وصغرى السنوسي، وشرح الجزيرة له، وحكم ابن عطاء الله مع شرح زروق، ونظم بن مقرعة، والهاشمية في التنجيم مع شرحها، ومقدمة التاجوري فيه، ورجز المغيلي في المنطق، والخزرجية في العروض، فشرح الشريف السبتي، وكثيرًا من تحفة الحكام لابن عصام، مع شرحها لولده كلها بقراءاته، قرأت عليه فرعي ابن الحاجب قراءة بحث جميعه، وحضرته في التوضيح، كذلك لم يفتني منه إلا من الوديعة إلى الأقضية، وكثيرًا من المنتقى للباجي، والمدونة بشرح ابن الحسن الزريويلي، وشفا القاضي عياض، وقرأت عليه صحيح البخاري، نحو النصف، وسمعته بقراءاته، وكذا صحيح مسلم كله، ودولا من مدخل ابن الحاج، ودروس من الرسالة، والألفية، وغيرها، وفسرت عليه القرآن العزيز، إلى أثناء سورة الأعراف، وسمعت بلفظه جامع المعيار للونشريسي كاملا ..."[٣٦]، ويظهر لنا جليًا هيمنة مواد العلوم النقلية، وخاصة الفقه والحديث، وهو ما كان يدرس أيضًا في المراكز العلمية بالمغرب[٣٧]، كما نجد من المؤلفات، الدراسية المغربية عندهم، الشفا للقاضي عياض، وهو كتاب ملأ فراغا في المكتبة الإسلامية في العالم الإسلامي كله لم يملأه سواه، ودلائل الخيرات للجزولي، ومقدمة ابن آجروم، وشرح المكودي على ألفية ابن مالك، والبسط والتعريف في علم التصريف للمكودي أيضا، ولامية الزقاق،

والمنهج المنتخب في قواعد المذهب للزقاق أيضًا، وشرح الشريف السبتي على الخزرجية في العروض، والدرر اللوامع في قراءة نافع لابن بري، وإضاءة الدجنة في عقائد أهل السنة، لأحمد المقري، في التوقيت، ونظم المقنع للمرغيثي، وشرح الحكم العطائية للشيخ زروق الفاسي، والمدخل لابن الحاج الفاسي، وجامع المعيار للونشريسي[٣٨]. ومن المراجع المغربية كذلك عندهم، شرح أبي الحسن الصغير الفاسي على المدونة، وكتاب المراصد في التوحيد لمحمد العربي الفاسي، ومنظومة الذكاة له، ونوازل عبد القادر الفاسي، ونظم العمل الفاسي، وشرحه لولده أبي زيد، وتكميل المرام في شرح شواهد ابن هشام، لمحمد بن عبد القادر الفاسي، ومطالع المسرات في شرح دلائل الخيرات، للمهدي الفاسي، والأنوار السنية للشريف أحمد بن محمد بن أحمد، ورحلة ابن بطوطة، ونوازل الورزازي، وفهرست ابن يعقوب الولي المراكشي، وإشراق البدر على عدد أهل بدر لأحمد بن علي السوسي، ومختصر أبي عبد الله الفيلالي، ونظم الدول للفاسي[٣٩].

## رابعًا: تصدر علماء البلدين للتدريس بأهم المساجد المتواجدة في بعض المراكز الثقافية بالقطرين

كان للعلماء سواء علماء المغرب، أو علماء السودان الغربي، خلال العصر السعدي دور كبير خاصة في المجال العلمي، إذ كان لهم الدور الأوفى، في تمتين العلاقات الثقافية بين القطرين، من خلال تنقلاتهم، ورحالاتهم المستمرة بين المغرب والسودان الغربي، واشتغالهم في المناصب الهامة كالتدريس، والخطابة والقضاء، ومما يدل على التلاحم الثقافي والحضاري، بين المغرب الأقصى والسودان الغربي، وجود أساتذة من المغرب الأقصى، كانوا يدرسون أهالي السودان الغربي، شتى العلوم التي كانت تدرس بالمغرب الأقصى، وكذلك وجود أساتذة من السودان الغربي درسوا بالمغرب، وساهموا بقسط وافر في بناء صرح الحضارة المغربية نكتفي بذكر:

### ٤/١-أحمد بابا التنبكتي

ومن المعلوم أنه عاش بمراكش مدة، ودرس فيها، وأفتى، وألف كثيرا من مؤلفاته، ومنها نيل الابتهاج، وكفاية المحتاج، الذي ألفهما برسم خزانة السلطان أحمد المنصور السعدي[٤٠]، وعلى الرغم من شدة المحن، التي ابتلي بها أحمد بابا التنبكتي في هذه السنوات المراكشية، كانت تلك من أغنى فترات حياته عطاء وشهرة، ففيها ختم بعض كتبه سنة ١٠٠٤هـ، وأكمل أشهرها وهو "نيل الابتهاج" سنة ١٠٠٥هـ، واختصره في "كفاية المحتاج"، الذي تعود إحدى نسخه الكاملة إلى صفر من سنة ١٠١٢هـ، هذا فضلاً عن جلوسه للتدريس بعد خروجه من السجن، وازدحام الطلاب من حوله، ودوران الفتيا عليه لفظا، وكتابة، بحيث لا تتوجه غالبًا إلا إليه، وأشار في "النيل" إلى أن الله قد جبر عليه، فعادت له بعض كتبه، بعد دخوله لمراكش[٤١]، وقد جاء التنبكتي، إلى هذه البيئة المغربية، وعمره يناهز الأربعين سنة، فأسهم فيها بالتأليف والتعليم[٤٢]، وقد أكد هذا أحمد بابا التنبكتي، بقوله، "ولما خرجنا من المحنة، طلبوا مني الإقراء، فجلست بعد الإباية بجامع الشرفاء بمراكش، من أنوه جوامعها، أقرئ مختصر خليل قراءة بحث وتدقيق، ونقل وتوجيه، وكذا تسهيل ابن مالك، وألفية الحديث للعراقي، فختمت علي نحو عشر مرات، وتحفة الحكام لابن عاصم، وجمع الجوامع للسبكي، وحكم ابن عطاء الله، والجامع الصغير للجلال السيوطي قراءة تفهم مرارا، والصحيحين سماعا علي وإسماعا مرارا، ومختصرهما، وكذلك الشفا والموطأ والمعجزات الكبرى للسيوطي، وشمائل الترمذي، والاكتفاء لأبي الربيع الكلاعي، وغيرها. وازدحم علي الخلق وأعيان طلبتها ولازموني، بل قرأ علي قضاتها، كقاضي الجماعة بفاس، العلامة أبي القاسم بن أبي النعيم الغساني، وهو كبير ينيف على الستين، وكذا قاضي مكناسة الرحلة المؤلف صاحبنا أبو العباس ابن القاضي، له رحلة للمشرق، ولقي فيها الناس، وهو أسن مني، ومفتي مراكش الرجراجي، وغيرهم، وأفتيت فيها لفظا، وكتبا، بحيث لا توجه فيها الفتوى غالبا إلا إلي، وعينت لها مرارا، فابتهلت إلى الله تعالى أن يصرفها عني، واشتهر اسمي في البلاد، من سوس الأقصى، إلى بجاية والجزائر، وغيرها، وقد قال لي بعض طلبة الجزائر، وقد قدم علينا بمراكش، لا نسمع في بلادنا إلا باسمك فقط"[٤٣].

### ٤/٢-محمد بن عبد الكريم المغيلي

رحل الفقيه محمد ابن عبد الكريم المغيلي، إلى بلاد السودان الغربي، ليعمل على تصحيح العقيدة الإسلامية، الذي أخذ الفساد يدب فيه، وليصبح أحد أهم الروابط الثقافية، التي ربطت المغرب بالسودان الغربي، عن طريق منطقة توات، فمنذ القرن الخامس عشر الميلادي، أصبح هذا الإقليم مركزا هاما لنشر الفكر والثقافة الإسلامية، بالمدن الإسلامية القريبة من الأطراف الجنوبية للصحراء، وعند وصول المغيلي إلى هذه الديار، رأى بأن فهم الناس، لأحكام الدين الإسلامي تطبع عليه البساطة، مما أشاع ظاهرة الشعوذة، التي كان من ورائها

أناس ادعوا الفهم الصحيح لديننا الحنيف، وأول منطقة حل بها المغيلي، منطقة أهير مارا، بتدمكت، التي كانت لا تزال في تلك الأيام على ازدهار ملحوظ، ومنها انتقل إلى كشين أو كانو، التي بقي بها للقضاء والاقتداء، والتدريس[٤٤]، حيث ترك العديد من المؤلفات في ميدان العلم والتأليف، التي كان لها بالغ الأثر في الحياة العلمية، والثقافية في غرب إفريقيا، منها الغرب المنير في علم التفسير، مصباح الأرواح في أصول الفلاح، شرح مختصر خليل، مفتاح النظر في علم الحديث، شرح جمل الخونجي في المنطق، ففي نفس السياق قام المغيلي بمراسلة السيوطي وانتصر لآراء أرسطو في المنطق، فتأثر بآرائه الكثير من علماء إفريقيا، وساروا على منهجه، ونشروا مؤلفاته التي تدرس إلى اليوم[٤٥].

### ٣/٤-عبد القادر بن علي بن يوسف الفاسي

الفقيه، الذي ذهب إلى السودان الغربي، وبالتحديد إلى مدينة تنبكت، وقد منح إجازة، أي شهادة، في مجال التعليم، للسيد أبا بكر بن محمد بن محمد، الشهير بآت التنبكتي، في صحيح البخاري، وغيره، جاء في نصها ما يلي: "الحمد لله رب العالمين، وصلواته، وسلامه، على سيدنا ومولانا محمد (ﷺ)، خير خلق الله أجميعين، والرضاء على آله، وأصحابه أجمعين، وبعد، فيقول العبد المشفق من سوء كسبه، المستغفر من ذنبه، عبد القادر بن علي بن يوسف الفاسي، غفر الله ذنوبه، وستر عيوبه، أن الفقيه، المشارك الأديب الفاضل العلامة، المعني الفهامة، الري السني، الشريف الحسني، السيد أبا بكر بن محمد، الشهير بآت التنبكتي، الدار أدام الله توفيقه، وهيأ لما يرضيه طريقه، قد سألني أن أجزيه، في كتب الحديث، كذا مثل الصحيحين، وغيرهما[٤٦].

تميط لنا هذه الإجازة، النقاب عن العديد من الجوانب المهمة، في تاريخ العلاقات الثقافية، بين المغرب الأقصى، والسودان الغربي.

### ٤/٤-مخلوف بن علي بن صالح البلبالي

فقيه، حافظ رحلة اشتغل بالعلم على كبر على ما قيل، فأول شيوخه سيدي العبد الصالح عبد الله بن عمر بن محمد أقيت، شقيق جدي بولاتن، قرأ عليه الرسالة، ورأى منه نجابة فحظه على العلم، فرغب فيه وسافر للمغرب، فأخذ عن ابن غازي وغيره، اشتهر بقوة الحافظة، حتى ذكر عنه العجب في ذلك، ودخل بلاد السودان ككنو وكيشن، وغيرهما، وأقرا هناك، وجرى له أبحاث في نوازل مع الفقيه العاقب الأنصمني، ثم دخل تنبكت وأقرأ بها، ثم رجع للمغرب فدرس بمراكش، وسم هناك، فمرض فرجع لبلده، وتوفي بعد الأربعين وتسعمائة[٤٧].

## خامسًا: الفتاوى الدينية

لقد كان بين علماء المغرب والسودان الغربي في العصر السعدي علاقات طيبة، مبنية على التبادل العلمي من خلال تبادل المصنفات، وابدأ الرأي والمشورة، والاستفسار والفتوى، زادا من تقويتها سيادة مذهب واحد بين القطرين، ألا وهو المذهب المالكي. فكان الكثير من علماء المغرب يستفتون علماء السودان الغربي كلما استصعبوا أمرا أو مسألة ومثل ذلك ما كان. وأفتيت فيها لفضا وكتبا بحيث لا توجه فيها الفتوى غالبا إلا إلي، وعينت لها مرارًا فابتهلت إلى الله تعالى أن يصرفها عني[٤٨].

وتأكيدًا على الصلات العلمية بين السودان الغربي وبلاد المغرب ما حدث من إرسال رسائل وكتب تعبر عن الاهتمام بما يحدث من أمور مرتبطة بالدين والدنيا بين الفقيه أحمد بابا من جهة وبين فقهاء المغرب من جهة أخرى، منها مراسلاته وفتواه الشهيرة في مسالة العبيد بعد أن أرسل أهل توات رسائل إلى أحمد بابا التنبكتي حول مجلوب السودان فرد عليهم أحمد بابا بالجواب حول حكم الإسلام في رسالة سماها الكشف والبيان لحكم مجلوب السودان[٤٩]، وكذاك مراسلته وفتواه الشهيرة في مجال التدخين وعرفت بـ "قواعد أحمد بابا في حلية التدخين" وجاء رد أحمد بابا عليها مفصلاً في كراسة أطلق عليها اسم "اللمع في الإشارة لحكم التبغ والذي انتهى من تأليفه عالم (١٠١٦هـ/١٦٠٧)، ووعد بكتاب آخر يكون أكمل وأتم بعنوان : **عين الإصابة في مسالة طابة**، وكانت فتوى أحمد بابا الذي كان من المدمنين على التدخين بحليته ما دام غير منوم وغير مفسد للوضوء، فهي ليست كالخمر، ولا توصف بصفاته[٥٠]. كما أفتى أحمد بابا بفتوى حول أعراف جزولة وهي عبارة عن أمور تتعلق بالأحكام العرفية التي كانت سائدة في تلك الجبال المغربية ناحية السوس الأقصى[٥١]. فكان الكثير من علماء المغرب يستفتون أحمد بابا التنبكتي كلما استصعبوا أمرا أو مسألة وقد أكد هذا بقوله، "وأفتيت فيها لفضا وكتبا بحيث لا توجه فيها الفتوى غالبًا إلا إلي، وعينت لها مرارا فابتهلت إلى الله تعالى أن يصرفها عني"[٥٢]. وما ذكرناه لا يدل إلا على بعض الصلات العلمية والثقافية التي ربطت بين علماء السودان الغربي وعلماء بلاد المغرب، وهي صلات عميقة الجذور ضاربة في التاريخ[٥٣].

## خَاتِمَةٌ

هكذا إذن، تبين من خلال فصول هذا العرض، أن الأشراف السعديين ربطتهم أيضًا بإفريقيا جنوب الصحراء علاقات ثقافية وثيقة، زاد من تقويتها سيادة المذهب الواحد ألا وهو المذهب المالكي، وقد حرص السعديون على تمتين الوحدة الإسلامية، حيث زاد التواصل بين القطرين عن طريق الرحالات العلمية فانعكس ذلك على تبادل المعارف والعلوم والمصنفات العلمية، وانتقال طلبة العلم بين المغرب السعدي والسودان الغربي، هذا بالإضافة إلى هجرة المغاربة إلى السودان الغربي الذين كان من بينهم العلماء والفقهاء الذين ساهموا في إثراء الحياة الفكرية، والذين لم يكونوا يلقوا أية صعوبات عند حلولهم بالبلد الآخر نتيجة وحدة المذهب، وكانوا يعينون في الوظائف الهامة مثل التدريس، الخطابة، الكتابة، القضاء.

كما كان للعلماء دورًا كبيرًا في مختلف المجالات، وخاصة المجال العلمي، ولا سيما علماء المغرب الذين ظهر تأثيرهم بشكل جلي وواضح في السودان الغربي وبخاصة في مجال التعليم إذ نقلوا طريقتهم الخاصة في ذلك وساهموا بقسط كبير في حركة التعريب بالجزء الغربي من القارة السمراء، وذلك راجع بالدرجة الأولى إلى اشتغال أغلبهم بعد حلولهم بالسودان الغربي في ميدان التعليم، أما من الناحية العلمية والدينية فكان دور العلماء والفقهاء المغاربة بارزًا وهامًا في نشر الثقافة العربية الإسلامية وذلك بنشر الحرف العربي وتعاليم الفقه والحديث وأصول الفقه والتفسير وعلم الكلام التي كانت سنية في منهجها مغربية في طرائق تدريسها، ونتيجة ذلك حدث تبادل ثقافي واسع النطاق، شمل الميادين الدينية والروحية والعلمية والفنية بمختلف جزئياتها ومركباتها، وكان هذا التبادل بين البلدين عملية أخذ وعطاء وتأثير وتأثر من الجانبين، فلقد ساهمت الرحلة العلمية السعدية في إثراء الحضارة المغربية والإسلامية وأصبح السودانيين يأخذون من السعديين بقدر ما كان السعديين يأخذون منهم من العلوم والتأثيرات الثقافية والفنية المختلفة.

## الاحالات المرجعية:

(١) عماري، الحسين، **الزوايا كقناة للتواصل التجاري والثقافي والروحي بين المغرب وبلاد السودان خلال العصر الحديث وبداية المعاصر**. مجلة أمل، العدد ٣٥، ٢٠٠٩، ص. ١٢.

(٢) أخرجه مسلم عن حديث أبو هريرة.

(٣) أخرجه عبد البر عن حديث أبي ذر.

(٤) أخرجه ابن عدي والبيهقي عن حديث أنس.

(٥) ابن خلدون، عبد الرحمن، **المقدمة**، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ٢٠٠١، ص. ٧٤٤.

(٦) زكري، لامعة، **الرحلة العلمية ودورها في إثراء المجال العلمي، المفهوم، الدوافع**، الأنواع، مجلة كان التاريخية، العدد ٢٢، ٢٠١٣، ص.١٥٧.

(٧) هي صحراء في أعالي المغرب ذات نخيل وأشجار وعيون بينها وبين سجلماسة ثلاثة عشر يومًا انظر: عنتر، سحر، **فقهاء المالكية وآثارهم في مجتمع السودان الغربي في عهد مالي وصنغي**، مكتبة الثقافة الدنية، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠١١، ص١٢١.

(٨) هي مدينة بالمغرب الأقصى، وسميت بفاس لأنهم لما شرعوا في حفر أساسها وجدوا فأسا في موضع الحف، وتم بناء مدينة فاس في عام ١٩٢هـ. انظر: عنتر، سحر، فقهاء **المالكية وآثارهم في مجتمع السودان الغربي في عهد مالي وصنغي**، م.س، ص١٢١.

(٩) مدينة تقع في شمال النيجر حاليا. وهي من أهم المراكز الواقعة خلف الصحراء. في الطريق الشرقي لبلاد الهوسة، فهذه المدينة كانت ملتقى لطرق القوافل القادمة من السودان الغربي نحو فزن والقوافل التجارية الواصلة من السودان الأوسط غلى توات. وعبر هذه المدينة يستطيع المسافر أن يذهب غلى كافة الاتجاهات. انظر: بازينة، عبد الله سالم، **انتشار الإسلام في إفريقية جنوب الصحراء**، منشورات جامعة ٧ أكتوبر، مصراته، الطبعة الأولى، ٢٠١٠، ص١٤٧-١٤٨.

(١٠) مدينة تقع شمال العاصمة باماكو بجمهورية مالي، وكانت خاضعة لسيطرة مالي إبان عصور ازدهارها وتوسعها في منطقة السودان الغربي. انظر: بازينة، عبد الله سالم، **انتشار الإسلام في إفريقية جنوب الصحراء**، م.س، ص. ١٤٦.

(١١) إمارة من الإمارات السبع التي كونت بلاد الهوسا، انظر: رزق الله أحمد، مهدي، **حركة التجارة والإسلام والتعليم الإسلامي في غرب إفريقية قبل الاستعمار وآثارها الحضارية**، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، الطبعة الأولى، ١٩٩٨، ص٣٨٠.

(١٢) الغربي، محمد، **بداية الحكم المغربي في السودان الغربي**، مؤسسة الخليج للطباعة والنشر، الكويت، ١٩٨٢، الجزء الأول، ص. ٥١٤.

(١٣) الشيخ أحمد المنجور (ت. ٩٢٦-٩٩٥هجرية) أستاذ السلطان السعدي أحمد المنصور الذهبي، وإمام فاس وعالمها المشارك، وصفه تلميذه ابن القاضي قائلاً: "الإمام الفقيه المعقولي المؤلف، كان أية من آيات الله تعالى في المعقول والمنقول، وكان أحفظ أهل زمانه وأعرفهم بالتاريخ والبيان والأصول"، وله عدة مؤلفات منها، نظم الفوائد لحل المقاصد، مراتب المجد في آيات السعد،

وفهرسة المنجور، عنه ينظر: ابن القاضي، أحمد، **درة الحجال في أسماء الرجال**، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور، مكتبة دار التراث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٧١، الجزء الأول، ص١٥٦ ، القادري، محمد، **نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني**، تحقيق محمد حجي وأحمد توفيق، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، ١٩٧٨، الجزء الأول، ص٥٥

(١٤) ابن القاضي، أحمد، **درة الحجال في أسماء الرجال**، م.س، الجزء الثاني، ص ٢٣٨.

(١٥) ابن القاضي، أحمد، **درة الحجال في أسماء الرجال**، م.س، الجزء الثالث، ص ٩٦-٩٧.

(١٦) الغربي، محمد، **بداية الحكم المغربي في السودان الغربي**، م س، ص ٥١٦.

(١٧) نسبة إلى بلبال (أو تبلبلت)، وهي واحة بالقرب من توات عنه ينظر: رزق الله أحمد، مهدي، **حركة التجارة والإسلام والتعليم الإسلامي في غرب إفريقية قبل الاستعمار وآثارها الحضارية**، م.س، ص٧١١.

(١٨) مدينة تقع إلى الشمال الغربي من تنبكت ومعناها الأرض المرتفعة وكان أهل صنغاي يسمونها بيرو وكان تأسيسها حوالي القرن الأول الهجري. انظر: بازينة، عبد الله سالم، **انتشار الإسلام في إفريقية جنوب الصحراء**، م.س، ص١٤٧.

(١٩) الغربي، بداية **الحكم المغربي في السودان الغربي**، م س، ص ٥١٧.

(٢٠) حجي، محمد، **الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين**، منشورات دار الغرب للتأليف والترجمة والنشر، ١٩٧٨، الجزء الثاني، ص ٦٣٢.

(٢١) ابن القاضي، أحمد، درة **الحجال في أسماء الرجال**، م.س، ص ٣١٣-٣١٤.

(٢٢) ابن القاضي، أحمد، درة **الحجال في أسماء الرجال**، م.س، ص ١٦٢.

(٢٣) كشنة أو كستينا وهي إمارة من الإمارات السبع التي كونت بلاد الهوسا، انظر: رزق الله أحمد، مهدي، **حركة التجارة والإسلام والتعليم الإسلامي في غرب إفريقية قبل الاستعمار وآثارها الحضارية**، م.س، ص ٣٨٠.

(٢٤) السعدي، عبد الرحمان، **تاريخ السودان**، مطبعة بردين، باريس، ١٩٨١، ص ٣٩.

(٢٥) المصدر نفسه، ص. ٥١.

(٢٦) ميفا، عبد الرحمان، **الحركة العلمية في مدينة تنبكت خلال القرنين التاسع والعاشر الهجريين**، مجلة دار الحديث الحسنية، العدد ١٤، ١٩٧٩، ص ٣٨٧.

(٢٧) السعدي، عبد الرحمان، **تاريخ السودان**، م.س، ص ٣٥.

(٢٨) قصور بالصحراء وهي أعظم اشتهارًا وأعرف نقيبًا وأشد شوكة وأخشن جانبًا وأعظم إقليم المغرب وأكثرها إماما وأفسحها خطة. انظر: الفشتالي، عبد العزيز، **مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا**، دراسة وتحقيق عبد الكريم كريم، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والثقافة، الرباط، ص٧٣.

(٢٩) ابن القاضي، أحمد، **درة الحجال في أسماء الرجال**، م.س، الجزء الثالث، ص ١٦٢.

(٣٠) السعدي، عبد الرحمان، **تاريخ السودان**، م.س، ص ٣١.

(٣١) المصدر نفسه، ص ٢١٣-٢١٤.

(٣٢) نفسه، ص ٢٩٥.

(٣٣) قدوري، عبد الرحمن، **الوجود المغربي بمنطقة السودان الغربي في القرن التاسع والعاشر الهجري/ الخامس عشر والسادس عشر الميلادي، دراسة في الدوافع والنتائج**، رسالة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الغرب الإسلامي في العصر الوسيط، تحت إشراف مبخوت بودواية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تلمسان، ص. ١٠٧.

(٣٤) رزق الله أحمد، مهدي، **حركة التجارة والإسلام والتعليم الإسلامي في غرب إفريقية قبل الاستعمار وآثارها الحضارية**، م.س، ص. ٦٦٧.

(٣٥) عنتر، سحر، **فقهاء المالكية وآثارهم في مجتمع السودان الغربي في عهد مالي وصنغي**، م.س، ص٢٦١.

(٣٦) السعدي، عبد الرحمان، **تاريخ السودان**، م.س، ص. ٤٥-٤٦.

(٣٧) الغربي، محمد، **بداية الحكم المغربي في السودان الغربي**، م س، ص ٥٢٢.

(٣٨) البرتلي، محمد، **فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور**، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني ومحمد حجي، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨١، ص. ١٠-١١.

(٣٩) المصدر نفسه، ص ١١.

(٤٠) البرتلي، محمد، **فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور**، م.س، ص١٥.

(٤١) التنبكتي، أحمد بابا، **نيل الابتهاج بتطريز الديباج**، منشورات دار الكتاب، طرابلس، الطبعة الثانية، ٢٠٠٠، ص ١٦.

(٤٢) المصدر نفسه، ص ١٨.

(٤٣) البرتلي، محمد، **فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور**، م.س، ص٣٤-٣٥.

(٤٤) بودواية، مبخوت، **العلاقات الثقافية والتجارية بين المغرب الأوسط والسودان الغربي في عهد دولة بني زيان**، رسالة لنيل درجة دكتوراه الدولة في التاريخ، تحت إشراف عبد الحميد حاجيات، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تلمسان، ٢٠٠٥-٢٠٠٦، ص ٢٤٩-٢٥٠.

(٤٥) مصطفاوي، سعاد، **دور الحضارة العربية الإسلامية في تطوير الحركة العلمية في غرب إفريقيا**، مجلة الدراسات التاريخية، العدد ١٤، ٢٠١٢، ص٣٧٩.

(٤٦) المبروك الدالي، الهادي، **مملكة مالي الإسلامية وعلاقتها مع المغرب وليبيا من القرن ١٣-١٥م**، صفحات من تاريخ العلاقات العربية الإفريقية، دار الملتقى للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠١، ص.١٥١-١٥٢.

(٤٧) السعدي، عبد الرحمان، **تاريخ السودان**، م.س، ص ٣٩.

(٤٨) البرتلي، محمد، **فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور**، م.س، ص٣٥.

(٤٩) عنتر، سحر، **فقهاء المالكية وآثارهم في مجتمع السودان الغربي في عهد مالي وصنغي**، م.س، ص٢٦٤.

(٥٠) المرجع نفسه، ص٢٦٥.

(٥١) نفسه، ص٢٦٥.

(٥٢) البرتلي، محمد، **فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور**، م.س، ص٣٥.

(٥٣) عنتر، سحر، **فقهاء المالكية وآثارهم في مجتمع السودان الغربي في عهد مالي وصنغي**، م.س، ص٢٦٥.